التصوف في تركيا من التاريخ إلى السياسة البكتاشية

خالد محمد عبده(*)

آزرت الطريقة البكتاشية الأمراء العثمانيين الأوائل في بناء دولتهم، وبسط نفوذهم وتوسعاتهم وانتصاراتهم، في اثنتي عشرة ولاية تركية، ولا تزال هذه الطريقة حاضرة في تركيا والبلقان وغيرها من الدول العربية والغربية. وعلى الرغم من انتباه كثير من الدّارسين في الغرب لمكانة هذه الطريقة، وتناولها بالبحث والدرس: تاريخًا وشخصيات وأدبًا وفنونًا، فإنها لم تنل حظّها من البحث في الكتابات العربية، وغالب ما لدينا من معلومات عن هذه الطريقة يعود إلى الترجمات عن اللغات الفارسية والتركية، لذلك سنحاول في هذه الورقة أن نسلّط الضوء على هذه الطريقة عبر ما توافر لدينا من معلومات تاريخية وأدبية.

(*) باحث مصري مختص في علم التصوف.

شكا المؤرخ التركي فؤاد كوبريلي المشهور بتأريخه للدولة العثمانية وأوليائها، من عدم كفاية المعلومات التاريخية الموثّقة لدينا عن البكتاشية، واختلاط التاريخي بالمناقبي، ولذلك حينما أراد أن يؤرّخ للبكتاشية في مصر في فترة القرنين الرابع عشر والخامس عشر، اعتمد -بشكل أساسي- على كتب المناقب، لأن كثيراً من كتب التاريخ أحجمت عن ذكر معلومات تفيدنا في التعرّف على الوجود البكتاشي بشكل جيّد. وقد حاولنا في مقالتنا هذه أن نستقصي على قدر استطاعتنا ما توافر لدينا من معلومات عن هذه الطريقة من كتبها أو مما صدر من دراسات عنها.

واعتمدنا -بشكل أساسي- على مراجع عدة، منها: ما تُرجم من كتابات عن تاريخ الدولة العثمانية قديمًا وحديثًا. وهنا حاولنا أن نقرأ -بقدر من الحيطة- ما ورد عند خليل إينالجيك في كتابه الموسّع، وما أورده فؤاد كوبريلي في تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ المتصوفة الأولين من الأتراك، وما ترجم له من بحوث خاصة بالبكتاشية كالمنشور في الدوريات المصرية.

كذلك أفدنا من دراسة بديعة عبدالعال أستاذة اللغات الشرقية بجامعة عين شمس، المعنونة بـ(الفكر الباطني في الأناضول)، وما كتبه المستشرق البريطاني هاملتون جب في دائرة المعارف الإسلامية. كما اعتمدنا على دراسات محمد الأرناؤوط، وأفادتنا النصوص البكتاشية القديمة والحديثة في التعرّف على الطريقة من خلال أدبياتها. وهنا نذكر ترجمة العالم الجليل أحمد السعيد سليمان لنص قايغوسز أبدال

(دفتر العشاق) عن التركية، وكذلك أفادنا –كثيرًا– كتاب أحمد سري دده بابا شيخ مشايخ الطريقة البكتاشية، وشيخ تكية سيدنا عبدالله المغاوري بالقاهرة. كما أفدنا من قراءة تجربة أحد البكتاشيين المصريين التي رواها في سيرته الفنية. وأفدنا من كتاب إبراهيم الداقوقي الذي نشأ في بيئة بكتاشية وكتب عن البكتاشية مادة جيّدة في كتابه (العلويون).

أولاً: البكتاشية ولحظة التأسيس

أدّت البكتاشية مهمة عظيمة للدولة العثمانية، فقد وحّدت أغلب الفرق والطرق الصوفية، وخصوصاً ذات الشكل الباطني –عقائديًا– كالقلندرية والحيدرية، وهضمت تعاليم السابقين في طريقتها، ووحدت –إلى حدّ كبير– الفكر الصوفي في تركيا، مما قوّى الكيان العثماني وقتها، ومن خلال دورها السياسي أحرزت الدولة العثمانية انتصارات شتّى شرقًا وغربًا، وأثرت البكتاشية في معسكر الجيش الانكشاري الذي عُدّ –فيما بعد– من أتباع الطريقة البكتاشية، وارتبط بها ارتباطاً وثيقًا، وأصبح اسم حاجي بكتاش ولي من أشهر الأسماء في تلك الفترة، ونظر إليه باعتباره أبرز الأولياء وأنجعهم أثراً، وفي السطور التالية سنحاول التعرّف على هذه الشخصية المهمة في تاريخ الدولة العثمانية.

وُلد حاجي بكتاش ولي (646هـ) في خراسان، ويوصف في مصادر الطريقة بالأوصاف كافة التي نقرأ مثيلتها في كتب التراجم والطبقات عند التأريخ لأحد من الأولياء، فهو السّيدُ، والملاذُ، وسلطان

الأولياء، وبرهان الأصفياء، والقطب الأعظم، والهيكل النوراني، والسّر السبحاني، وخوارقه وكراماته لا حصر لها، وهو من أبرز الأولياء في عصره، تمحو كراماته كرامات أقرانه ومعاصريه، فهو غالبٌ بأفعاله ولا يدانيه أحدٌ!

وهو من السادات الحسينية، ويُذكر نسبه على الصورة التالية: السيد محمد بكتاش بن إبراهيم الثاني بن موسى، بن إسحاق بن محمد إبراهيم بن حسن إبراهيم بن مهدي بن محمد بن حسن بن إبراهيم المكرّم المجاب، بن سيدنا الإمام موسى الكاظم، بن سيدنا الإمام جعفر الصادق، بن الإمام محمد الباقر، بن الإمام زين العابدين، بن سيدنا ومولانا الإمام أبي عبدالله الحسن، بن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرّم الله وجهه ورضي عنه)[1].

اشتهر حاجي بكتاش في طفولته وصباه بأنه الصادق الأمين الخلوق التقيّ الورع. تلقى حاجي بكتاش تعليمه الديني على يد الشيخ لقمان الخراساني، أحد خلفاء قطب الأقطاب الشيخ أحمد يسوي أبرز الأولياء التركستان، وإن كان البعض يشير إلى تلقي حاجي بكتاش معارفه على يد الشيخ أحمد يسوي نفسه، فلا يفهم هذا إلا في إطار صبغ البكتاشية بصبغة توثيقية تدعم وجودها في الأناضول، ونستطيع أن نتفهم -بناء على ذلك- ما نقرؤه في كتب تعاليم البكتاشية من وصايا يسويّة كمثل الأمر المنسوب إلى أحمد يسوي موجّها حاجي بكتاش: «لقد أخذت نصيبك من العمل، أبشر بأنك ستكون قطب الأقطاب، وستحكم

(1) راجع: أحمد سري دده، الرسالة الأحمدية في تاريخ الطريقة البكتاشية، نشرة مصر، 1959 ص 6-7.

أربعين عامًا، وها نحن أولاء في الطريقة إلى الآن، وسيؤول الأمر إليك من بعدنا، ولقد حان ميقات رحيلنا، هيّا امض، وتوجّه إلى بلاد الروم، سأخضع لك أبدال الروم، وأجعلك قائدًا عليهم»[2].

إن حاول أحد الباحثين نفي الصّلة بين البكتاشية واليسويّة، اعتمادًا على شيعية الأولى وسُنّية الثانية، فإن ذلك مما لا يصمد أمام مراجعة أدبيات الطريقتين، وبصورة خاصة أدبيات البكتاشية التي حوت في مضامين تعاليمها أفكار اليسوية وغيرها من الطرق الصوفية في الأناضول، كما أنها نظرت نظرة تقدير وإجلال إلى مشايخ الطريقة اليسوية.

أول ما يستدعيه الذهن عند مطالعة سيرة بكتاش ولي المدوّنة بقلم أتباع الطريقة، سيرة النبي محمّد (صلى الله عليه وسلم)، فطفولة الوليّ كطفولة النّبي، لا فرق بينهما، النبيُّ لم يشارك الصبية في الألعاب واللهو، وكذلك الولي، ولم تمل نفسه قطّ إلى ما مال إليه أترابه، وكذلك الوليّ، ولم يواجه أحدًا بذنب ارتكبه أو هفوة اقترفها، ستّارٌ للعيوب ولا يفشي سرًّا، ولا يسير إلاّ طاهرًا، وحينما تعرض عليه الدنيا يرغب عنها، ويتفرّغ في فترة التكوين للعبادة والذّكر ويعتزل قومه، ويمارس المجاهدات والرياضة الروحية فترة طويلة في صومعته، الوليّ على قدم النبيّ، والوليّ مجدد للميراث السابق.

ارتحل حاجي بكتاش عن وطنه بناء على وصية المشايخ،

---

(2) راجع: بديعة، محمد عبدالعال، الفكر الباطني في الأناضول، نشرة الدار الثقافية للنشر، القاهرة، 2010، ص28.

ووصل إلى بدخشان، وعاد إلى وطنه مجدداً بعد رحلة جهاد، ليأمره مرشده الروحي أن يهاجر إلى الأناضول، فالهجرة ميلادٌ جديد وبدء لمرحلة أقوى في الدعوة، وسلوك إلى عالم الولاية، هاجر الصوفية من أوطانهم، فعلى امتداد خريطة العالم الإسلامي من الهند والأندلس إلى مكة ومصر وإيران والشام وتركيا، نشهد هجرات المئات والألوف من العلماء، وكان السلاطين السلاجقة يرحبون بقدوم كبار العلماء والمتصوفة من تركستان وإيران، الذين غادروا ديارهم تحت ضغط الغزو المغولي، أو رغبة في وجود بيئة مناسبة لنشر دعوتهم، مما جعل المدن السلجوقية كقونية وقيصرية وآقسراي، وسيواس تتحوّل إلى أشهر المراكز الصوفية في العالم الإسلامي[3]، ويكفي أن ننظر اليوم إلى مدينة قونية –كمثال– التي يفد إليها الناس من كل حدب وصوب متوجّهين إلى زيارة الرّومي ومرشده الروحي شمس تبريزي.

شارك الصوفية في الجهاد[4] والغزو كغيرهم من الفرق الإسلامية، ومن مآثر حاجي بكتاش أنه مجاهد (حارب الكفّار وجاهد في سبيل اللّه، دفعًا لإساءة الكفار إلى الإسلام)، ولمّا أتمّ غزواته استحقّ لقب (غازي). الانفتاحُ على الآخرين، وقبول التعددية –كما يرد في المدونة البكتاشية– لا يعنيان عدم الانتصار للذات، وما تعتقده من أفكار، فقبول المذاهب والديانات الأخرى لم يمنع مؤسس البكتاشية

(3) قارن: خليل، إينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناؤوط، نشرة دار المدار الإسلامي، بيروت، 2002، ص301.

(4) قارن: ما يورده أسعد، الخطيب، في بحثه (صور من جهاد الصوفية في القرنين الثاني والثالث الهجريين) المنشور في مجلة التراث العربي، 1419هـ، العدد 73.

من حمل السلاح قربة إلى اللّٰه، بل يعد هذا من جملة مناقبه.

في الهجرة حياة جديدة، وتوطيد لدعائم الدعوة، فحينما غادر بكتاش ولي خراسان، يمم وجهه شطر النجف (الأشرف) لزيارة ضريح الإمام عليّ بن أبي طالب، باب مدينة العلم، وأحد أقانيم الثالوث البكتاشي (اللّٰه، مُحمّد، عليّ) الذي يُنظر إليه بكثير من التقديس، فهو في الأرض فارس حكيم أمير، وفي السماء مرشد يطلب منه الأولياء البكتاشيون النصح ويرشد المشايخ إلى الحقّ، ويعرّفهم بأنفسهم، ويحققون من خلاله الخلافة للّٰه، بعد زيارة الإمام علي ذهب حاجي بكتاش إلى مكّة لأداء مناسك الحجّ، وزار مقام النبيّ الأكرم في المدينة، ثم زار المسجد الأقصى، ومن النبي الخاتم إلى الأنبياء السابقين يلتمس الإمداد، وكما بدأ الزيارات بعليّ انتهت بزيارة مراقد الأولياء في دمشق وحلب، ليستقر بعدها حاجي بكتاش في الأناضول، وكما توافد عليه الناس وهو في شبابه، توافدوا عليه في موطنه الجديد بسبب كراماته التي لا تنتهي، وأفعاله الطاهرة التي تخلقهم خلقًا جديدًا.

كان حاجي بكتاش قد قدم من خراسان إلى سيواس ثم إلى آماسيا وقيرشهر ومنها إلى قيصرية، ثم استوطن قرية صالوجة قره يوق بقيرشهر، التي طابت له مستقرًا ومقامًا. ونال شرف استضافة الوليّ كبير القرية -آنذاك- الشيخ إدريس وزوجه السيّدة فاطمة، التي ستصبح شخصية بارزة في الطريقة البكتاشية أكثر من زوجها، وبعد أن كانت عقيمًا ستنجب الذكور، بفضل كرامات هذا الولي الوافد،

ويمسي الأبناء علامات على الطريقة، وعلى الرغم من أن حاجي بكتاش لم يتزوج، ستنتسب إليه هذه الذّرية أبناء وحفدة، وينظر إليه بكثير من التقدير من أبناء الطريقة.

وتُعرف هذه القرية التي شرّفها حاجي بكتاش باسمه في الوقت الحاضر، فقد صارت له منزلة عظمى في نفوس الترك، وطبقًا لما تذكره المصادر[5] التركية، أنه كان يأتي إلى الأناضول على رأس تسعمائة فارس، وينضم إلى الحروب مع بابا إلياس، وبابا إسحاق مؤسس البابائية الذين أُعدما بسبب تمردهما على السلاجقة في الأناضول، وقد اشتهر حاجي بكتاش ببطولاته الحربية وعاصر الأحداث الجسام التي تعرّضت لها الأناضول، وكان يؤازر بكوات وأمراء العثمانيين من أجل حماية الدولة. وينسب إلى حاجي بكتاش ما يتعارض مع المصادر التاريخية، من مثل أنه التقى بالسلطان أورخان، وأعجب به السلطان وأشاد ببسالته وشجاعته، وأمل أن يحقق وحدة الأناضول السياسية، فأسس حاجي بكتاش جيشًا جديدًا، وفي عهده تكاملت القوة العسكرية للعثمانيين وأيقظ الوعي التركي لدى مريديه والجند الانكشارية.

وهذا واضحٌ منه إدراج حاجي بكتاش ولي في زمرة الشخصيات الكبرى، بالإصرار على نشاط مزعوم له وإن كان العقل يرفضه، فمن المعروف أن حاجي بكتاش تُوفّي عام 1270م وحكم السلطان أورخان كان في الفترة (1326م–1362م) مما يعني أنه لم يكن موجودًا في فترة سلطته، ومع ذلك تذكر أغلب المصادر التركية أن حاجي بكتاش

---

(5) قارن: بديعة عبدالعال، مرجع سابق، ص30.

مؤسس الانكشارية[6]!

عكست قصة حياة حاجي بكتاش أفكار المجتمع التركي في عصره، وذهنية المريدين الذين يبالغون في شخص شيخهم ويرفعونه مرتبة عليا، فمن يقرأ في المدونة البكتاشية يلاحظ قرب بكتاش من السيد المسيح، لا قربه من جلال الدين الرومي وغيره من الأولياء فحسب، فمعجزات الشفاء وردّ البصر للعميان وإحياء الموتى كما نُسبت إلى صحابة النبي في كتاب الشفا للقاضي عياض، نُسبت إلى حاجي بكتاش في كتب المناقب البكتاشية، وترويض الحيوانات وركوب الأسد الذي نقرأ عنه في سير الأولياء كان من السهل بالنسبة لحاجي بكتاش، ومن الطبيعي إن حظي بمعجزات الأنبياء التي اختصوا بها أن تزداد كراماته كولي على من سبقوه أو عاصروه.

ألّف حاجي بكتاش (مقالاته) باللغة العربية نثرًا، ثم ترجمها شعرًا إلى اللغة التركية خطيب أوغلو العام 1490م، وتُرجمت بعد ذلك نثرًا إلى التركية، ويرى هاملتون جبّ أن كتاب المقالات لا يوضّح لنا -بشكل كبير- مذهب البكتاشية وشعائرهم السرّية، وتشير بديعة عبدالعال إلى تراكمات فكرية وعقائدية وفلسفية نلاحظها عند دراسة المقالات، ففيها من العقائد ما يميّز البكتاشية عن غيرهم من أصحاب الطّرق، وقد التمست من الديانات الأخرى ما شكّل معتقدها فيما بعد، مثال ذلك عقيدتهم الخاصة بالعناصر الأربعة (الماء والهواء والتراب

(6) راجع: مادة البكتاشية التي كتبها أ. ر. جب، وج. هـ.كالمرز، في الموسوعة الإسلامية الميسّرة، ترجمة: راشد البراوي، الجزء الأول، ص153، وقارن المرجع السابق، ص31.

والنار)، وفكرة الإنسان الإلهي، وخلود الرّوح، وما يشبه الثالوث المسيحي.

يقول حاجي بكتاش في كتابه (ولاية نامه): «يجب عدم التفريق بين الأديان، لأن التفرقة تؤدي إلى الخصومة بين أهلها، في حين أن جميع الأديان تسعى لتحقيق السلام والإخاء بين البشر أجمعين».

ثانياً: هيكلة البكتاشية وتنظيمها ودورها في التاريخ العثماني

يعتبر بالم سلطان (1475م–1516م) أهمّ خليفة لحاجي بكتاش ولي. وُلد بالم سلطان لأب بكتاشي في البلغار، وأم مسيحية، ومارس الوعظ والإرشاد هناك، ولما ذاعت شهرته أرسل في طلبه بايزيد الثاني، وولاّه شؤون تكية حاجي بكتاش بقيرشهر العام 1501، ومن خلال جهوده المستمرة، وتطويره للطريقة البكتاشية اعتبر المؤسس الثاني لها، إذ وضع أصولها وشرح مراتبها ودرجاتها ومراحل السلوك بالنسبة للمريدين، مما شجّع الكثيرين على الانتساب إليها، وأكسبها طابعًا مختلفًا عن عصر حاجي بكتاش.

عمل بالم سلطان بشكل جاد ومثابر لتطوير الطريقة وأكد أن (التصوف البكتاشي) هو الحبُّ الإنساني والعشق الإلهي، أن يحبّ الإنسان نفسه، ويعشق اللّه، لأن من يحب نفسه فإنه يحب اللّه، من خلال إيمانه بوحدة الوجود (اللّه – الطبيعة – الإنسان)! فالإنسان خليفة اللّه على الأرض، ومتى ما عرف الإنسان حقيقة نفسه، وصل إلى

الحقيقة الكبرى وإلى أولى مراتب النجاح في حياته.

يشير بعض الباحثين[7] إلى أثر والدة بالم سلطان في بعض أفكاره التي نادى بها، ويرجع البعض ما في البكتاشية من عقائد إلى أصول مسيحية، بناء على ديانة والدة بالم سلطان، فالأئمة الاثنا عشر يقابلهم في المسيحية الحواريون أو التلاميذ، وشكل التقديس لـ(اللّه، ومُحمّد، وعليّ) يقابله في المسيحية الثالوث، وبعض الأفكار التي سنلاحظها في تعاليم البكتاشية أو ممارساتها كالعزوبة والاعتراف للشيخ عن الخطايا، وما نُسب إليهم من تناول الخمر كطقس، هو من المشترك بين البكتاشية والمسيحية.

لكننا من خلال التعرّف على ألوان المذاهب والديانات التي انتشرت في تركيا في هذه الفترة، نجد من الطبيعي أن نجد أفكارًا مسيحية أو نرى أثر المسيحية في البكتاشية، فمن المعروف أن كثيرين من مسيحيي الشرق كانوا قريبين من مشايخ البكتاشية، ونسبة كبيرة من المنضمين إلى الطريقة في بداياتها كانوا من أصول مسيحية، ونقرأ في المصادر التاريخية أن أغلب جيش الانكشارية كان من أهل الذّمة يأمر السلطان بتلقينهم الشهادة، ويتعاون مع مشايخ البكتاشية من أجل تعليمهم أمور دينهم وشحذ هممهم من خلال تلقينهم الذّكر، فلا يقتصر الأثر المسيحي على نسب بالم سلطان وحده، بل هناك عوامل عدّة تعاضدت معًا وأحدثت هذا الأثر في بناء الطريقة وتعاليمها[8].

---

(7) قارن بديعة عبدالعال، مرجع سابق، ص33.

(8) يؤكد خليل إينالجيك أهمية دور البكتاشية قائلاً: لقد لعبت الدّعوة الناجحة التي يقوم بها آباء البكتاشية

ففي أواخر القرن السادس عشر -على سبيل المثال- سُمح لثمانية من شيوخ البكتاشية بالإقامة في معسكرات الانكشارية، وأقامت البكتاشية مع الفرقة التاسعة والتسعين في معسكرهم الجديد في إسطنبول، وكان رئيس هؤلاء الدّراويش بمثابة وكيل لشيخ الطريقة البكتاشية، وعكف هؤلاء الشيوخ على أداء الصلاة، وتلاوة القرآن، والدّعاء بنصر القوات العثمانية على الأعداء، وأن يجعل الدّولة مهيبة منيعة من كل غزو تتعرّض له. وكان هؤلاء الدّراويش البكتاشية يسيرون في المواكب الرسمية أمام أغا الانكشارية مرتدين الملابس الخضراء، وينادي رئيسهم بأعلى صوته: (كريم الله) فيرد عليه بقية البكتاشية في صوت واحد جهير: (هُو)، ولهذا أطلق على هؤلاء الدّراويش (هوكشان Hu-Kechan) أي الصائحون بلفظ (هُو)[(9)].

أثّرت البكتاشية تأثير واضحًا في جيش الانكشارية، وأصبحت مراسم البكتاشية ومصطلحاتها وعقائدها من المرتكزات الأساسية في تكوين هذا الجيش، بحيث لم يعد يمكن التفريق بين الاثنين، إلا من حيث صورة الشيخ البكتاشي والجند الانكشاري فحسب.

استمدت الانكشارية قوّتها من البكتاشية حتى إنّهم حينما أعلنوا العصيان والتمرد على السلاطين العثمانيين، آزرتهم الطريقة البكتاشية وكانت معهم، مما أدى إلى ضعف الدولة حتى جاء السلطان

دورها في جذب المسيحيين إلى هذه الطريقة الغريبة والديمقراطية في آن واحد، التي كانت بالنسبة لهم لا تختلف كثيرًا عن المسيحية، مرجع سابق، ص298.

(9) راجع: عبدالعزيز، محمد الشّناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، نشرة الأنجلو المصرية، ص482.

محمود الثاني وألغى هذه الطريقة وعصف بمعسكرات الانكشارية وأغلق التكايا عام 1826، كان التمرد والوقوف مع حركات الإضراب، سببًا في غلق التكايا، واستمر الوضع على هذه الصورة حتى إعلان الجمهورية في تركيا[10]، وبعد تنفيذ القانون الخاص بإغلاق التكايا وإلغاء الطرق الصوفية في السادس من سبتمبر (أيلول) 1925 تم نفي صالح نيازي دده بابا من تركيا عام 1931، وعُيّن علي ناجي بايقال وكيلاً وخلفًا له، وبعد وفاته عام 1960، انتخب خلفاء الطريقة الدكتور بدري نويان دده بابا، وظل يشغل هذا المنصب إلى وقت قريب[11].

وبسبب بُعد الطريقة البكتاشية عن مناطق العمران، وإنشائها تكاياها في أماكن نائية، لم تعد تكاياها تدخل تحت رعاية وزارة الأوقاف التركية، واعتبر البعض أن عدم ضم مؤسساتها إلى وزارة الأوقاف، يشير إلى أن الحكومة التركية تنظر إليهم باعتبارهم مندرجين في عداد الطرق الخارجة على حدود الشرع والدين، فهم طائفة مبتدعة حادت عن الحق والصواب وتغيّر شأنهم من حال إلى حال.

ثالثاً: معتقدات البكتاشية

نظم أحد الشعراء أدعية بكتاشية يقول فيها:

تعال أيّها العاقل تعال، ادخل القلب وتأمّل، إن العين ترى، والأذن تسمع، ويقولان للقلب: انظر وتأمل.

---

(10) قارن: خليل إينالجيك، ص287.

(11) راجع: الفكر الباطني في الأناضول، ص42.

امض بالرأس إلى السّماء، واطرحه عند موطئ القدم.

إذا كنتَ صوفيًّا اشترِ ولا تبعْ، ولا تخلط ما حلّ بما حرّم!

لا تحد عن الطريق المستقيم وانظر إليه.

تعاظمني كثير من الذّنوب والكرم منك يا إلهي، فانظر لعبدك العاجز يا غنيّ.

أنت مانح الروح ومانعها، أنت الأوّل والآخر.

يقدّم كثيرون في تأريخهم للبكتاشية مخالفة المعتقدات الإسلامية، والاستهانة بشعائر الإسلام، فلا صلاة مفروضة، ولا خمر محرّمة، وما حضّ عليه الشرع من الزّواج رغبوا عنه، وما أكده الدّين من نقاء التوحيد والابتعاد عن الشرك يخالفونه بالتّثليث، لكننا لا نجد -فيما بين أيدينا من مصادر- ما يجعل اختيار العزوبة فرضًا على المنتسب إلى الطريقة البكتاشية، ولعلنا نراه مسلكاً اختيارياً من خلال ما نقرؤه في التاريخ عن علماء عزّاب اختاروا عدم الزّواج للتفرّغ لعلومهم أو لممارستهم الطقوس والشعائر براحة بال وتفرّغ أكثر، ومما يجعلنا أكثر ارتياحًا أنه مسلك من المسالك، وليس فرضًا على أتباع الطريقة ازدياد عدد الطريقة، وتكوّنها من رجال ونساء، فتكاثر العدد لا يأتي إلا عبر الزّواج، ومما يرويه بعض البكتاشية في مذكراتهم كـ(الرملة البيضاء) لعصمت داوستاشي أن آباءهم وهم صغار كانوا يحرصون على أن يزوروا التكايا ويلقّنوا تعاليم البكتاشية.

كذلك فإننا نقرأ في رسالة (قايغوسز أبدال) عبدالله المغاوري (دفتر العشّاق) استهجانه لشرب الخمر والسّكر، وهو من رجال الطريقة، وشيخ التكية البكتاشية في القاهرة في وقته، فإن كان تناول الخمر يعد طقسًا من طقوس الطريقة، فلا أظن أن شيخها يعيب على أحد تناولها أو ينهى أتباعه عنها.

هناك مبادئ عدة يؤمن بها الشيخ البكتاشي، ويحافظ عليها، هي:

1- التسامح مع المذاهب والأديان كافة، وعدم الانشغال بتكفير أحد أو الحقد عليه، والنظر إلى جميع البشر في محبة وسلام وود.

2- الاسترشاد بنور الله في قضاء جميع الأعمال.

3- الإيمان بالوجود الإلهي في النفس كسر من أسرار الطريقة، مع الاعتقاد بوحدة الوجود. ومحاولة التعرّف على هذا الوجود، والإيمان بأن الدنيا وما عليها من موجودات هي وحدة متكاملة.

4- مناجاة الله ومحاولة الفناء في أنواره، شوقًا إليه، وإرادة (للاتحاد) معه عبر العشق السرمدي.

5- الإيمان بقدرة الله، وطلب المساعدة منه فقط، والاعتماد عليه.

6- الحفاظ على أسرار الطريقة وعدم تداولها إلا مع الأنداد من مشايخ الطريقة.

رابعاً: كيف يصبح الشخص بكتاشيّا؟

نشأ إبراهيم الداقوقي في بيئة بكتاشية، واختلط ببعض الدّارسين من المستشرقين، ممن تخصصوا في درس هذه الطريقة، كالروسية مليكوف، وفي كتابه «العلويون» (ص247) يشرح مراسم اعتماد المريد بكتاشيًّا، على النحو التالي: يصف الزّعيم الروحاني شيخ المشايخ الـ(36) لرابطة البكتاشيين العالمية (بدري نويان ده ده بابا) مدارج سلوك المريد، بعد إجراء مراسيم (المصاحبة) للدخول إلى الأبواب والمقامات، وصولاً إلى طريق الحقيقة فيقول: إن الخطوة الأولى لدخول المريد إلى الطريقة البكتاشية هي التوبة النصوح، التي لا يمكن الرجوع عنها، ليتحول إلى طفل بريء كما ولدته أمّه، ويبدأ الاحتفال بسؤال المريد من قبل الشيخ البكتاشي: هل فهمت النصائح كافة؟ هل قبِلتها؟ ويجيب المريد ثلاث مرات بالإيجاب والقبول، ثم يؤمر بالسجود أمام المرشد الذي لقّنه تلك النصائح. وبهذه الطريقة يكون الشيخ البكتاشي قد أخذ نفسه من ذاته القديمة وأعاد إليه ذاته الجديدة العادلة الوفية، وأصبح مريدًا بكتاشيًا.

ويردد المريد في وقت طقوس الترسيم ما يؤكد ولاءه لهذه الطريقة، ومنه: «سلكت طريق الهدى بعد التخبيط في الرّدى، فأفقت من غفلة إذ تبدّى الصبح وانجلى، اثنتان وسبعون فرقة ضلّت سبيل الحجى، بجاه النّبي وأهله اجعلني من زمرة من نجا، مذهبي الحقُّ هو مذهب الصادقين الأصفيا، وملاذي هو الحاج بكتاش قطب الأوليا»[12].

---

(12) نلاحظ في هذه الكلمات وجود المعتقد نفسه عند أغلب الفرق الإسلامية، التي ترى نفسها على الحق هادية

يوضح الشيخ أحمد سري بابا شيخ البكتاشية في مصر أصول الطريقة في رسالته، قائلاً: ويجب على المريد البكتاشي أن يتوب عن الآثام والذنوب توبة نصوحًا، وأن يجرد نفسه من محبة الدنيا وما فيها من الزّخرف والمتاع واللهو، وأن يكون من (أهل السّنة والجماعة) تقيًّا نقيًّا لا يأكل الحرام، قائمًا بالمفروض والسنن، صابرًا طائعًا مداومًا على العبادة، دائبًا على قراءة الأذكار والأوراد، شجاعًا على نفسه حتى لا يتبع غواية الشيطان، سخيًّا جوادًا كتومًا للأسرار أمينًا على الأعراض، عارفًا قدر نفسه، معترفًا بفضل شيخه، متأدبًا في حضرته، معظّمًا له، مؤدّيًا واجبات التكريم له، منفّذا لأوامره دون اعتراض، مهتديًا بهديه راضيًا مرضيًّا، متفانيًا في حبّ اللّه ورسوله وآل بيت الرسول[13].

نجد أسس هذه الاعتقادات في كتاب مقالات حاجي بكتاش، كما نجد أن العضو الجديد لا بدّ أن يمر عبر أبواب الشريعة (أحكام الإسلام) والطريقة (تعاليم الطريقة البكتاشية) والمعرفة الصوفية والحقيقة (الخبرة المباشرة بجوهر الوجود)، وبشكل متوازٍ مع هذه الأبواب، يصبح للقرآن أربعة معان: ظاهر للعوام، وزبدة النص للحكماء، وخفايا النصّ للأولياء، وحقيقة النصّ للأنبياء، وفيما يتعلّق

مهتدية، وغيرها قد ضلّ وابتعد عن الصراط السويّ، ومن أراد أن يخلص وينجو فعليه سلوك سبيل البكتاشية، مثل هذه الفكرة تجعل من تساهل البكتاشية مع أهل الأديان الأخرى أمراً محلّ نظر، كما أنها توقفنا على مدى تطوّر البكتاشية بعد بكتاش ولي الذي كان يرى عدم التفريق بين الأديان فضلاً عن المذاهب، وأدخل -بناء على ذلك- في طريقته من طرق الآخرين وأفكارهم الكثير. قارن -هنا أيضًا- ما يقوله إينالجيك عن الفلكلور التركي (ص300) إذ يمثّل البكتاشي نموذجًا خاصًا، وبالتحديد نموذج الشخص الذي ينأى بنفسه عن حماقات العالم، ويسخر بلطف من التّعصب الديني، وينظر إلى كل الأمور بتسامح، انطلاقًا من اعتقاده بأن كل الأمور نسبية وعابرة!

(13) راجع: الرسالة الأحمدية، ص69.

بالشعائر والطقوس البكتاشية فهي لا تختلف كثيرًا عن غيرها من الطّرق الدينية، وقد تأصّلت هذه الشعائر والطقوس بالتدريج بواسطة خلفاء حاجي بكتاش، وأخذت شكلاً مختلفًا مع تطوير بالم سلطان في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي[14].

خامساً: تنظيم البكتاشية ومراتبها

أمّا تنظيم هذه الطريقة، فقد كان تراتبيًا، فعلى رأس الطريقة كان الـ(بير) أو (ده ده) (الجدّ) ويأتي بعده (الخليفة) أو (البابا)، والـ(بابا) هي درجة المشيخة التي يُرقّى إليها الدرويش بعد قضاء فترة طويلة يكون قد حصّل خلالها علوم الشريعة والطريقة، وتبحّر في معرفة الآداب وتذوّق معاني الرموز الصوفية، واستطاع تفسير غوامضها وشرحها لإخوانه، وأخذ بيدهم إلى الطريق القويم.

والـ(ده ده) هو الحائز على درجة خليفة، وهذه الدرجة لا يمنحها إلا شيخ المشايخ، ومن يحصل على هذه الدرجة الرفيعة له الحقّ في حمل الأمانات المقدّسة، ويعيّن شيخًا لإحدى التكايا، كتكية مصر أو أبدال موسى سلطان أو غيرها من التكايا.

والـ(ده ده) بابا شيخ مشايخ التكية البكتاشية العامة، وينتخب من بين الخلفاء، وله حقّ الإدارة وتعيين المشايخ وترقية البابوات إلى درجة خليفة، وله حقّ عزل المشايخ وإجراء طقوس التجريد، وهو -بصفة عامة- القيّم على الطريقة، المحافظ عليها وعلى أموالها،

(14) راجع: خليل إينالجيك، ص299.

والعامل على نشر التعاليم البكتاشية.

أما درجات طلاب البكتاشية ومريديها، فهي: (العاشق) الذي يحبّ الطريقة وتسيطر الروح البكتاشية على حواسه، ويحب الفقراء ويتذوق المعاني الصوفية حتى تتكون لديه الرغبة الأكيدة في الانضمام إلى الطريقة، بعد إكثاره من زيارة التكية والاستماع إلى المواعظ والحِكم، التي يدلي بها الشيخ، إلى أن يرشّحه لدرجة (طالب) والطالب هو الذي أعلن رغبته في الانتساب إلى الطريقة حتى يقبله الشيخ ويلقّنه النصائح والوصايا –كما مرّ آنفًا– حتى ينتقل الطالب إلى درجة (محبٍّ) وهنا يكون قد فاز بالدخول إلى سلك المنتسبين وأصبح من رجال الطريقة، وله الحق في دخول حلقات الذّكر والوعظ، حتى يعلو درجة فيصبح (درويشًا) والدرويش هو المحبُّ الذي ارتقى إلى درجة رفيعة بعد أن تبيّن علو كعبه في معرفة الطريقة وأصولها وآدابها، ووهب نفسه للخدمة العامة[15].

سادساً: البكتاشية اليوم

في أيامنا هذه، يولي الباحثون المحدثون من الأتراك والمستشرقين عناية كبيرة بهذه الطريقة الصوفية، ويحاولون إحصاء مريديها والتعرّف على مذهبهم، وأفكارهم وماهيتهم الدينية، وبعضهم يرى أن هذه الطريقة (البكتاشية العلوية) دين غير سماوي استقى تعاليمه من الزرادشتية.

---

(15) راجع: الرسالة الأحمدية ص 69–72.

حاول إردوغان إجراء عملية جراحية سياسية على العلويين، ويتوقع أن يكون لها انعكاسات خطرة: ففي فهم إردوغان: العلويون الذين سيقبلون الذهاب إلى المسجد هم «العلويون مع عليّ أو العلويون الجيدون». وتالياً، فإنه يغلق ضمنيًّا حق العلويين الذين يتمسكون بدور العبادة الخاصة بهم. وقد ظهرت نوايا إردوغان العارية في يوم 28 مايو (أيار) من قبل نائب رئيس الوزراء إيمرله آيسلر، الذي قال: «لا يمكننا أن نعتبر دور عبادة العلويين هي دور عبادة؛ لأننا نعتبر العلوية تابعة للإسلام. وما دام العلويون يعتبرون أنفسهم مسلمين، فإن دار العبادة في الإسلام هي المسجد». وهذا الموقف يعني بالنسبة للعلويين محاولة لـ«تسنين» أو «مسْجَدة» العلويين، ونبذ أولئك الذين سيرفضون الإذعان لذلك.

فقد صرّح إردوغان العام 2013 بأنه إذا كانت العلوية تعني محبة علي (رضي الله عنه)، فأنا من العلويين. وفي تصريحات لاحقة، قال إنّه من الواضح أنه لن يترك عليًّا (رضي الله عنه) للعلويين.

لكن الأمر في البداية لم يكن على هذه الصورة، إذ لم يكن رفض زعماء حزب العدالة والتنمية إلصاق صفة (إسلامي) بحزبهم اعتباطًا، وإنما جاء نتيجة الحاجة إلى التماسك الفكري والالتزام بالبرنامج الانتخابي المعلن للناخبين، الذين يشكّلون ألوان الطيف السياسي من الإسلاميين المحافظين إلى الاشتراكيين واليساريين الاجتماعيين، والتزامًا بشعار «توفير الطعام والعمل والعدالة والحرية لأبناء الشعب كافة الذين رفعوه قبل الانتخابات التي فاز فيها بالأكثرية النسبية».

قد أكد عبدالله غول (نائب رئيس الحزب) بعد الفوز الساحق في انتخابات 2002 ورئيس وزراء الحكومة التركية الثامنة والخمسين بأن «حزب العدالة والتنمية ليس حزبًا إسلاميًا». وأضاف إردوغان إلى ذلك قائلاً: إنني لست أصوليًّا متطرّفًا، وإنما أنا مسلم مثل بقية المسلمين في تركيا، ومؤمن بتراث الشعب التركي وهويته التاريخية، ولذلك فإننا نحترم طراز حياة وأسلوب معيشة كل شخص في بلادنا. وتؤكد (نازلي اليجاق) العضو في حزب العدالة والتنمية في حديثها لإحدى القنوات الفضائية التركية حول رئيسها إردوغان: «إن إردوغان رجل مسلم في حياته الخاصة» فهو يؤم الجوامع أيام الجمعة لأداء صلاة الجماعة، ولكنه إنسان ديمقراطي، ومؤمن بالأفكار الكمالية بعد التحول الكبير في سلوكه السياسي نتيجة للانقلاب الأبيض عام 1997، ولذلك صرّح النائب مرجان عن حزب العدالة والتنمية لوكالة الصحافة الفرنسية بالقول: «إن الحكومة التركية المقبلة ستستمر في السياسة الخارجية مع تعديلات طفيفة وتريد في هذا الإطار تطوير علاقاتها مع دول المنطقة ومن بينها إسرائيل» (2002/11/8).

في انتخابات 3 نوفمبر (تشرين الثاني) 2002، فاز حزب الشعب الجمهوري بـ(178) مقعدًا من مجموع (550) في البرلمان، بفضل مساعدة الطرق الصوفية كالبكتاشية والقلندرية وغيرهما، ويقدر عددهم بحوالي[5] ملايين نسمة.

في مايو (أيار) 2014 نظمت الطوائف العلوية التركية تظاهرات حاشدة في ميادين المدن الكبرى وفي مقدمتها إسطنبول وأنقرة وأزمير

تحت شعار «كفى للظلم وانعدام الضمير»، أعقبها تجمع آخر أمام البرلمان للاعتراض على ما أسمته «إرهاب الدولة» والهجمات التي تستهدف العلويين.

وتم توجيه دعوة لكل المواطنين للاشتراك في التظاهرات الاحتجاجية ضد «حكومة العدالة والتنمية» خصوصاً بعد مقتل أوغور كورت دون أي ذنب واتهام رئيس الوزراء رجب طيب إردوغان له بالإرهاب وإثارة الشغب.

في غضون ذلك، ذكرت شبكة «إن. تي. في» الإخبارية أنه تم اعتقال (48) مواطناً في أعقاب التظاهرات التي شهدتها مدن تركيا احتجاجاً على مقتل مواطنين. ورفع المحتجون شعارات تطالب باعتقال ومحاكمة المسؤولين عن مقتل مواطنيهم.

في يوليو (تموز) 2014 حاول إردوغان طمأنة الطائفة العلوية البكتاشية، فقام بدعوة ممثلي الطائفة العلوية إلى مأدبة الإفطار في القصر الرئاسي، وذلك بمناسبة شهر محرم. وأتى هذا بالتزامن مع اتخاذ الحكومة الإجراءات اللازمة لتسريع عملية الانفتاح على العلويين. ودُعي إلى الإفطار الذي جرى في 22 يوليو (تموز) رئيس بيوت الجمع البروفيسور عز الدين دوغان، ورئيس وقف أهل البيت فرماني آلتون، ورئيس فيدرالية الأوقاف العلوية جمال جانبولات، ورئيس فيدرالية العلويين البكتاشيين جنكيز هورت أوغلو، ورئيس ولي الجمعية الثقافية حاجي بكتاشي مصطفى أوز جيفان.

في ديسمبر (كانون الأول) 2014 صدر حكم عن المحكمة الأوروبيّة لحقوق الإنسان في ستراسبورغ ينصّ على أن «إدارة الشؤون الدينية» في تركيا، وهي الإدارة الرسمية للإشراف على النشاط الديني في الجمهوريّة التركيّة، لا تزال هي مصدر الظلم الرئيس للعلويّين الأتراك، لأن الدولة التركيّة لا تعترف بالمذهب العلوي دينياً، باعتبار أن إدارة الشؤون الدينية تعترف بالإسلام السُنّي كممثل وحيد للإسلام في البلاد.

صدر هذا الحكم الأوروبي لصالح الدعوة للاعتراف بالإسلام العلوي، وفي اليوم التالي صدر حكمٌ عن المحكمة التركية العليا يتبنّى أحكاماً سابقة عن محاكم الدرجة الأولى في تركيا أن الـ«جِمعي»، أي بيوت الدعوة لدى العلويّين الأتراك، هي مراكز ثقافية قانونية لكنها ليست دور عبادة؛ لأن القضاء لا يستطيع منح الصفة القانونية لها كدور عبادة، وإنما اعتبارها دور عبادة يرتبط بالخيار الفردي، أي بنظرة الفرد إليها.

الحكم الصادر عن المحكمة الأوروبيّة –كما يرى جهاد الزّين[16]– يصيب –إذن– بنية النظام السياسي التركي كنظام تمييز ديني، وينقل المسألة إلى مستوى حقوقي رفيع أوروبيّا، وتالياً عالميّاً. وهو ما ستكون له انعكاساته بين النخب الليبرالية التركية الداعية إلى سد هذه الفجوة البنيويّة في الديمقراطيّة التركية.

(16) راجع: مقاله في (النهار) 11 ديسمبر (كانون الأول) 2014، بعنوان: عدم الاعتراف المذهبي بالعلويّين الأتراك: الصدمة الأوروبيّة.